بينما تؤكد التقارير تزايد أعداد المرضى النفسيين

أكثر من نصف مليون مريض نفسي يعالجهم ١٠٠ طبيب فقط !

بغداد / علي المالكي

ان ملف الصحة النفسية في العراق هو في الواقع ملف العقل العراقي وما اصابه من اختلالات خطيرة في الانماط السلوكية، واساليب التفكير الشائعة لدى الناس،ملف اعادة الصحة والعافية لهذا العقل، وانقاذه، او انتشال له من اغلال اللاتوازن الى فضاء التوازن العقلي، والسلوكي، والانفعالي بعد ان تعرض لشدات قاسية وحادة من الحروب العبثية والتي لم يجن منها العراقيون سوى الاحساس بعدمية وجودهم الناجمة عن الحماقات الصدامية يحتاج الى وقفة جادة.ان مراجعة سريعة لما حدث بعد التاسع من نيسان وحتى الان يؤشر ان ثمة خللاً خطيراً في المجتمع العراقي خلل يتصل بعقول الناس قبل انتماءاتهم السياسية او القومية او المذهبية وربما كان هذا الخلل سببا خفيا للكثير من الظواهر المرضية والكوارث التي يعاني منها العراقيون.ان معيار الاولويات يجب ان لايحجب الاهمية الكبرى لملف الصحة النفسية في العراق ومعاملته كبقية الملفات الاخرى، لنقلب بعض اوراق هذا الملف....

حقائق وارقام

لخص الدكتوركاظم المقدادي الباحث والكاتب العراقي في تقريره المعنون(في اليوم العالمي للصحة النفسية: الصحة النفسية للطفولة العراقية الواقع والمتطلبات) عددا كبيرا من التقارير عن الجوانب المختلفة لواقع الصحة النفسية في العراق مركزا على الصحة النفسية لاطفال العراق.

فقد اكد المقدادي في تقريره ان الطفولة العراقية ورثت تركة ثقيلة ورهيبة خلفها النظام المقبور واستنادا الى التقارير الدولية فان هناك (٥)ملايين و٣٠٠ الف طفل يتيم وقرابة ٩٠٠ الف من ذوي الاحتياجات الخاصة من المعاقين جسديا ونفسيا واكثر من مليون ونصف المليون ارملة عدا مئات الالاف من المطلقات واغلبهن يتحملن مسؤولية اعالة اطفالهن الذين شكلوا نحو ٧ ملايين .اما التقرير الذي اعده فريق من الخبراء الحقوقيين واختصاصيي الصحة العامة من جامعة هارفارد فاكد ان الاطفال العراقيين يشبهون الناجين من قنبلة هيروشيما ويصفون بالخمول ويفتقرون الى الاحساس، وعلق الدكتور (ماغن راوندالن) مدير برنامج بحوث الاطفال في مركز علم نفس الازمات في جامعة بيرغن بالنرويج قائلا:ان الاطفال يشبهون الاموات الاحياء وانهم فقدوا مشاعرهم ولا يتمتعون بحياتهم.

ونقل الدكتور كاظم ما قاله عدد من علماء نفس الطفل من ان اطفال العراق هم الاكثر معاناة بين اطفال الحروب وتوصلوا الى استنتاج مفاده ان اغلبية اطفال العراق سيعانون مشكلات نفسية شديدة في حياتهم وطالبوا ببذل جهود وطنية ودولية واسعة لمساعدة العدد الكبير من الاطفال المصابين بالصدمة. اما تقرير الصليب الاحمر الدولي فاشار الى ان اعداد الناس الذين يبحثون عن العلاج من الامراض النفسية والعقلية في العراق قفز من ٢٠٠ الف في عام ١٩٩٠ الى ٥١٠ الف عام ١٩٩٨، فيما نقل عن الدكتور احمد شاكر العاني اخصائي الامراض النفسية قوله:انه لم يواجه مجتمعنا من قبل الامراض النفسية بهذه الكثرة وهذا الانتشار وتكاد امراض الانفصام والاكتئاب والقلق تكون اهم الامراض المنتشرة.وانتشرت ظاهرة الادمان على المخدرات بين الشباب في عقد التسعينيات

عندما اشتدت قسوة الظرف الاقتصادي على العوائل العراقية.ويخلص الدكتور كاظم المقدادي الى ان الواقع الاجتماعي افرز مشاكلا عويصة في الصحة النفسية وسط الطفولة العراقية وتحولت الى معضلة طبية واجتماعية خطيرة وان حلها لايحتمل التاجيل. ومن جهته قال رئيس الجمعية الامريكية للاطباء النفسانيين (جيمس سكالي): نفكر في استراتيجية لمواجهة الامر فهناك حاجة ماسة الى زيادة اعداد العاملين في قطاع الصحة النفسية ليس فقط في العراق بل في اغلبية دول المنطقة واجرى مقارنة بين استراليا ٢٠ مليون نسمة والعراق ٢٢ مليون نسمة حيث تملك استراليا ٢٨٠٠ طبيب نفساني و١٠٠٠ معالج نفسي بينما لايوجد في العراق سوى ١٠٠ طبيب نفساني وليس هناك معالجين نفسانيين.

السبب والنتيجة

واذا كان لكل ظاهرة اسبابها التي انتجتها فان تزايد اعداد المرضى النفسيين والعقليين في المجتمع العراقي وقلة الكوادر الطبية المتخصصة والمؤسسات الصحية وبالتالي تخلف خدمات الصحة النفسية له اسبابه الفاعلة والمساعدة.

ويضع المعنيون بالصحة النفسية والعقلية حروب النظام الديكتاتوري سببا وراء هذه الحالة من التدهور اضافة لبقية العوامل المساعدة وكتب الدكتور قاسم حسين صالح في الورقة التي قدمها في مؤتمر الصحة النفسية الثاني الخاص بالعراق في القاهرة (ينفرد العراق بكون شعبه احوج الشعوب الى خدمات الصحة النفسية فمنذ عام ١٩٨٠ شهد العراق اكثرمن حرب كارثيةثم حصار شامل ١٣ عاما اكل فيها الناس الخبز الاسود فيما رموز النظام كانوا ياكلون لحم الغزلان ثم الحرب التي اطاحت بالنظام الديكتا توري وصولا الى مشاهد العنف اليومي.....والصدمات التي احدثها اكتشاف ضحايا المقابر الجماعية وضغوط ما بعد الصدمة والاثار النفسية الناجمة عن حرب الانفال البشعة ضد الشعب الكوردي..وهذا يعني انه لايوجد بيت عراقي لم يفقد عزيزا او قريبا او صديقا.. فضلا عما ولدته سنوات الحصار من ازمات نفسية وتفكك عائلي وجرائم وانحرافات وتعاطي مخدرات اضافة الى الخوف والقلق وفقدان الشعور بالأمن الناجم عن تعدد سبل الموت ومجهولية مصادره ان ٢٧ مليون عراقي هم بحاجة حقيقية وسريعة الى خدمات الصحة النفسية). ويتفق الدكتور كاظم المقدادى مع الدكتور صالح في اعتبار الحروب احد اهم الاسباب وراء ظاهرة تفاقم ازمة الامراض النفسية والعقلية في العراق ونقص خدمات الصحة النفسية والحاجة الى تطويرها.كما يتفق الخبراء الاجانب مع العراقيين في تاويل السبب ونتيجته فيما يتعلق بملف الصحة النفسية في العراق، ويبقى الاهم البحث عن حل للمشكلة. والشروع بتطبيقه.

الواقع الميداني

وفي جولة تقص ميداني لواقع الصحة النفسية في العراق التقينا المستشار الوطني للصحة النفسية في العراق الدكتور محمد العبودي ووضعنا امامه الاطروحة القائلة بتخلف الصحة النفسية في العراق فتحدث قائلا(المشكلة الكبيرة الاولى فيما يتعلق بالصحة النفسية مسالة(الوصمة) فانت تخشى مراجعة الطبيب لكيلا يوصف بالوصمة كونك تعاني من مرض نفسي، والواقع ان كل الشعوب تعاني من (الوصمة) والحرج من الامراض النفسية والعقلية والوصمة مرتبطة بثقافة الشعب ويبدو اننا ما زلنا من الشعوب التي تعاني من التخلف في النظر لهذا النوع من الامراض والوصمة تشمل كل مراحل الاصابة بالمرض (اهل المريض والاطباء..) وتحاشى الاطباء التخصص بالطب النفسي. وبالعودة للتاريخ نجدبدايات التخلف في هذا الموضوع قبل الثقافة الاسلامية ونعثر عليها في العصور الوسطى واضطهاد الكنيسة للناس في القرون الوسطى وبالذات المصابين بالامراض النفسية والعقلية... هذه العتمة التي غادرها الاوربيون انتقلت لنا بهذا الشكل واصبحت هناك فضائيات تتحدث عن هذه الخرافات المتعلقة بالمرض النفسي والعقلي، ويعتقد الكثير من الناس بصحة ما تقدمه الفضائيات مثل الاعتقاد بوجود صلة بين الجن والامراض العقلية وحاولنا باكثر من طريق ان نرتبط بحلقات نقاشية مع اناس متنورين من اجل تبديد بعض تلك الاوهام. ان الناس ينظرون للطبيب كونه علمانيا وقد توصل اولئك الاخوة معنا لذات النتيجة وهي انفصال الجن عن هذه الامراض . ولم اسمع يوما ان مصابا بالاسها ل قد مسه الجن فتسبب باصابته بالاسهال ماعدا المصاب بالصرع او الكآبة، والانسا ن عادة يميل الى تفسيرات غامضة عليه وطب الدماغ ما زال من المستعصيات ويميل الى وضع اجوبة ساذجة لهذه الاسئلة الخطرة. ان المستوى التعليمي لا يدلل على ثقافة الفرد وقد وجد احد الاطباء مثلاً ان سبب الصرع هو تلبس بالجن بينما اكتشف العلم الحالة بوصفها طاقة كهربائية تنتاب بعض المناطق في الدماغ، وهناك عقاقير ثابتة علمياً يمكنها ان توقف هذا الاختلال الكهربائي وتعالج المرض.. ولكننا ما زلنا نأخذ المريض الى شيخ يشوه جسده من الضرب المبرح. ان هذه الخزعبلات تنمو في المجتمعات ذات الثقافة المتدنية وتزداد في الازمات والازمة تساعد وتشجع على ثقافة الشعوذة ولان كل شيء يصبح غير آمن فما بالك بشعب مبتلى بكذا سنة من التخلف.

والعراق هو اول بلد في المنطقة بدأ بمعالجة الامراض النفسية والعقلية وقد تأسس مستشفى الرشاد عام ١٩٤٩ واخذ على عاتقه معالجة تلك الامراض، وفي الستينيات والسبعينيات بدات عملية نقل التجارب الاوربية الحديثة في العلاج مثل العلاج الجماعي ومشاركة العائلة وفكرة دمج خدمات الصحة النفسية في المستشفيات العامة وتبدل الوضع في الثمانينيات والحروب واقتصرت هذه الفروع على الاعتناء بضحايا الحروب فقط وبالاخص الثقافة العسكرية للطب النفسي.. واضمحلت هذه الفروع وقد غادر الاطباء الاختصاصيون ووصل عدد الاطباء الى (٧٠) طبيباً اختصاصياً يخدمون ٢٧ مليون انسان وهذه نسبة نادرة قياساً للبلدان المتطورة.. هذا واحد من عوامل خراب الصحة النفسية، وحتى سقوط النظام لا يوجد في العراق قانون ينظم عمل الصحة النفسية وقد استطاع الدكتور صباح فخر الدين وهو علم من اعلام الطب النفسي ان يؤسس الهيئة الوطنية للصحة النفسية وما زال يشرف عليها، وبدات الهيئة برسم الخطط واشركت في اعمالها بقية الوزارات لان الصحة النفسية مسؤولية الجميع، كما عمل على انشاء قانون الصحة النفسية الذي اقر من قبل مجلس الوزراء عام ٢٠٠٤، ولدينا مشروع مكافحة المخدرات وبعد تشكيل الهيئة زج جميع الاطباء النفسانيين في دورات تدريبية لتحسين مهاراتهم واعادة العلاقات مع العالم المتطور.

وما زلنا نعاني من مشكلة الكادر الوسطي وهناك صعوبة في تنمية المهارات لدى الباحثين والمرضين، وهناك مشكلة الادوية عالية الثمن والتي تحتاج لدعم الدولة وليس باستطاعة المواطن شرائها. ويجدر بالذكر ان اليابان، لها فضل كبير في الاسهام في تطوير خدمات الصحة النفسية في العراق فقد قدمت منحة مالية للصحة النفسية وتم استثمار المنحة بالتعاون مع الامم المتحدة لتاسيس ردهات نفسية داخل المستشفيات من اجل التخلص من مشكلة (الوصمة) عن واقع حال اكبر مصح نفسية وعقلية في المنطقة لنستكمل صورة الواقع الميداني للصحة النفسية، فقال (المستشفى تاسس قبل ٥٠ سنة ويستقبل نوعين من المراجعين، مراجعين حالتهم مستقرة وهذا النوع يستلم علاجه دورياً من الاستشارية، والثاني الراقدين وهؤلاء لديهم حالات مزمنة وبقائهم مع عوائلهم يشكل خطراً عليهم وعلى عوائلهم لان بصيرتهم غير موجودة، وهناك نوع ثالث في ردهة ابن الهيثم لفحص قواهم العقلية فاما يكونون غير مستقرين فتتم بقوة القانون معالجتهم وهناك من اتهموا بجنح وجرائم وترى المحكمة وجود خلل في قواهم العقلية ولا يتم علاجهم الا بعد قرار المحكمة وللاسف فان كثيراً من المرضى اهملتهم عوائلهم ولا نعرف عناوين عوائلهم وهناك حالات تحسن في الحالة الصحية وبقوا راقدين لانهم بلا ماوى وتصرف لهم كل المستلزمات من العلاج والتغذية ونفخر بما نقدمه للمرضى من ارزاق في المستشفى لدينا نحو ٦٠ مريضاً تحسنت حالتهم وقام المستشفى بتأهيل عدد من المرضى الذين اكتسبوا الشفاء ومن لا يوجد لهم ماوى بسبب هجرة ذويهم وعيناهم بصفة معينين لتنظيف الردهات والمرضى. وفي المستشفى علاج تاهيلي في المشاغل التي تعلم المرضى الرسم والخياطة والتطريز حيث تتم احالة المتحسنين الى مشاغل المستشفى، والعاملون فيها من ذوي الخبرة وقد ادخلناهم في دورات صحية لكي يحسنوا التعامل مع الموضوع وقد قدمت مسرحية من قبل النزلاء في اطار العلاج التاهيلي وفي هذا مسعى للتخلص من مشكلة (الوصمة).

هناك من خمسة الى عشرة بالمئة من المرضى حالتهم سيئة من البداية ولا تتحسن وفي الدول المتقدمة تمنح رواتب للعوائل التي لديها مريض نفسي ومرضانا من كل محافظات العراق وثانية للاسف فان عوائلهم تزودنا بعناوين غير صحيحة للتخلص من مريضهم ولطالما سفرنا مرضى تماثلوا للشفاء فعاد المريض ومرافقه لان العنوان غير صحيح.

وفيما يخص تخلف الطب النفسي فانا لا اعتقد بانه متخلف ولكن الوضع العام وما مر به العراق من كوارث وتدهور البنية التحتية وهجرة الكوادر الطبية هي العوامل وراء تخلف العناية بالصحة النفسية.

البحث النفسي

الملاحظ في ملف الصحة النفسية في العراق عدم استغلال خريجي اقسام علم النفس وضعف العمل الذي يؤديه العاملون في البحث النفسي والاجتماعي، وقد التقينا السيد عدنان علي حمزة (ماجستير علم نفس) ورئيس وحدة (البحث الاجتماعي) في المستشفى ليحدثنا عن عمل القسم فقال: لدينا استمارة خاصة بالمرضى (استمارة بحث اجتماعي) ومن واجبنا استنطاق المريض والحصول على معلومات تاريخ المرض والعائلة والتقارير الطبية لنستشف الحالة المرضية وملاحظة المظهر العام للمريض. كادر القسم انا ومعاونة طبية ونقوم بمساعدة الاخصائي على تشخيص المرض اعتقد ان دورنا اكبر مما مرسوم له في حدود استمارة المعلومات اذ يمكن لطالب في المتوسطة ان يقوم بهذا العمل والقسم بحاجة الى تطوير.

الكادر الطبي

ويعمل في المستشفى عدد من الكوادر الصحية وقد التقينا المعاون الطبي محمد ابو الهيل ليحدثنا عن عملهم في مستشفى الرشاد قال محمد انا وزملائي نبذل جهداً يختلف عن الزملاء في بقية المستشفيات واعتقد اننا بحاجة الى صرف مخصصات تتناسب مع الخدمة التي نقدمها لهذا النوع الصعب من المرضى والامراض.

عوائل المرضى

وتحدث الينا السيد ابو مصطفى عن مرض والدته ومعاناة العائلة فقال: اصيبت والدتي قبل ٣٠ سنة بهذا المرض وكان والدي على قيد الحياة وكنا صغاراً وكان ابي واخوالي ياخذون والدتي للطبيب او المستشفيات في حافظ القاضي او (الشماعية) وكان العلاج بالصدمة الكهربائية، وبعد وفاة والدي تحملت انا واخوتي مسؤولية العناية بوالدتي المصابة بالفصام وعلى نفس المنوال كنا بين فترة واخرى نقوم بمراجعة الطبيب وكان يعالجها بالصدمة (كوي) بالكهرباء فتتحسن الحالة وبعد شهر او شهرين تسوء حالتها من جديد وكنا نعاني في البيت من مرض الوالدة بسبب نقص الخبرة وصارت لدينا خبرة مكنتنا من التعامل المناسب مع امنا الكلفة المادية اثرت علينا وقد ادخلناها الى ابن رشد وتمت معالجتها بالكهرباء.

ستراتيجية للصحة النفسية

لقد قدم الدكتور قاسم حسين صالح ورقة الى مؤتمر الصحة النفسية الثاني الخاص بالعراق بصفته ممثلاً لوزارة التعليم العالي وتضمنت الورقة ستراتيجية شاملة لتفعيل الصحة النفسية في العراق، وهي على مرحلتين وتنفذ بالتعاون مع وزارة الصحة وبما يغطي كل مناطق العراق وتستنفر كل الطاقات ذات الصلة بالصحة النفسية، السؤال الذي يرد للعقل هل من سبيل لتطبيق هذه الخطة التي تنقذ ضحايا المرض النفسي والعقلي في العراق وتنشر الثقافة النفسية بين المواطنين من اجل سلامة العقول وحسن السلوك والقضاء على الظواهر المرضية النفسية والاجتماعية، ام انها مجرد ورقة طرحت في مؤتمر..؟

العراق أول بلد أنشأ مستشفى لعلاج الأمراض النفسية عام (١٩٤٩) وأول بلد يعاني تزايد الإصابة بهذه الأمراض!

مستشفى الرشاد (الشماعية)

الدليل على النظرة المتخلفة للمرض العقلي والنفسي في مجتمعنا و(الوصمة) التي تحدث عنها الدكتور محمد العبودي، نجده في ثبات تداول اسم المؤسسة المعنية بعلاج الامراض النفسية والعقلية فرغم تبديل اسمه من الشماعية الى الرشاد بقي الناس يتداولون اسم الشماعية ومن يسلك بطريقة غير عقلانية ينعته الناس بـ(شماعية) او (سويج) اللوثة العقلية كارثة يبتلى بها المريض في مجتمعنا اضافة الى عائلته.

تاسس مستشفى الرشاد عام ١٩٤٩ واختير له موقع بعيد نسبياً عن بغداد وهو مكان منعزل وهادئ وكبير والسعة السريرية ١٢٠٠ سرير ومعظمها مشغول حالياً من قبل المرضى على اختلاف حالاتهم المرضية وبعضهم تخلت عنهم عوائلهم ولم يبق لهم خيار سوى المكوث في هذا المكان الرحيم .

التقينا الطبيب الاستشاري ليحدثنا

الصحة النفسية والبناء الحضاري

عامر القيسي

حين تطّلع بشكل افضل على مشاكل المجتمع العراقي من خلال دراسات اختصاصية او تقارير دولية محايدة تكتشف أن المشكلة التي اطلعت على اسرارها وخفاياها وخطورتها تحتاج لان توضع على اول سلم اولويات عمل الحكومة خصوصا اذا كانت هذه المشكلة تتعلق بوسيلة وهدف النهوض الحضاري وهو الانسان.

وفيما يتعلق بالصحة النفسية للمواطن العراقي تستطيع بكل سهولة ان تتساءل وتستنتج عما يمكن

ان يقدمه الانسان العراقي الحاضر لاعمار بلاده والنهوض بها والمساهمة الفاعلة في تفتيت بنية التراكم الفكري والسلوكي السلبي في وضع يعاني فيه هذا المجتمع من وجود اكثر من خمسة ملايين ارملة واكثر من تسعمئة الف انسان عراقي من ذوي الحاجات الخاصة والذين يعطلون معهم نفس العود لرعايتهم فضلا عن مليون ونصف مليون مطلقة ، لاحظ هذه الارقام المخيفة وانعكاسات افرازاتها في الوسط الاجتماعي ،وبحساب بسيط تكتشف أن ثلث المجتمع العراقي يعاني بشكل او بآخر بهذه النسبة اوتلك من امراض نفسية متعددة ومختلفة، وبعيدا عن الاسباب،

فاننا نستطيع ان نقول بكل وضوح ، ان مثل هذا العدد وان لم يكن معطلا تماما عن القيام بدوره في عملية التنمية الا انه سيشكل عائقا حقيقيا ورقما صعبا امام عملية نهوض العراق مستقبلا.

من هذه النقطة يمكن القول ، ان هذه المشكلة تحتاج لان توضع بكل اشكالياتها وافرازاتها الحاضرة والمستقبلية امام المسؤولين ، لان الارقام تقول بكل وضوح ، ان ثلث المجتمع يعمل بثلث طاقته ونسبة اخرى منه من العاجزين وارقاماً مخيفة من العاطلين عن العمل

يعتقد البعض للاسف ان هذه المشكلة وبهذه الجدية المطروحة فيها ، من باب البطر امام ضخامة المهام الملقاة على عاتق الحكومة مثل ملفات الامن والاعمار والبطالة ، ونقول هنا ، ان من يساهم في تحقيق الامن الاجتماعي هو المواطن المتوازن السوي والذي يساهم في اعمار البلد هو المواطن الصحيح بدنيا ونفسيا ومن يساهم في حل معضلة البطالة هو المواطن الذي لاينتظر

ان تاتيه الاشياءجاهزة ومثل هذا المواطن ينبغي ان يكون سليماً نفسيا

مشكلة حقيقية ينبغي ان نواجهها جميعا بمسؤولية وجدية افرادا ومؤسسات دولة ووزاراتها مثل التربية والصحة والعمل وحقوق الانسان ، مشكلة تحتاج الى كل الجهد المطلوب لكي نصل الى النتائج الايجابية التي نريدها